الكتابة عن الحرب مغرية لكنها لا تضمن الجودة

دمشق – قدرة الرواية في سوريا على مواكبة الحرب بمجرياتها وما خلفته من تداعيات ورصدها لآثار هذه الحرب في نفوس السوريين محاور تداعت لمناقشتها مجموعة من الأدباء والنقاد ضمن اللقاء الشهري "شام والقلم" الذي استضافه المركز الثقافي العربي في أبورمانة بدمشق.

وفي مداخلة أولى أوضح الروائي والناقد نذير جعفر أن الرواية دخلت هذه الحرب من أوسع أبوابها، وهناك روايات كتبت بالدم في حين أن هناك روايات أخرى زورت الحقائق، مشيراً إلى أن نجاح المبدع يكون بقدر استجابته ومدى تفاعله وإحساسه واستشعاره وتنبئه بمسارات ومآلات هذه الحرب وتأثيراتها وقدرته على رؤية وقول ما لم يقله أو ما لم يره الآخرون بأساليب وتقنيات جديدة ومخيلة تكسر الرتابة والمألوف ولا تقف على السطح.

> الروايات السورية زمن الحرب تباينت بين نضج بعضها فنيا وفكريا ولغويا وتسرّع البعض الآخر ليكون مجرد تقارير

وبين جعفر أن هناك ما يزيد على 200 رواية وبضع روايات عربية عن الحرب في سوريا، وهي خمسة أنواع في رأيه. الأول استعاد تاريخ الثمانينات عبر سردية تربط بين الأمس واليوم، بينما الثاني ينجرف إلى مستوى التقارير المحكوم بالعداء وتصفية الحسابات، واكتفى الثالث بدور الشاهد الذي يدون يومياته على غرار ما كتبه البديري الحلاق عن جرائم جنود الاحتلال العثماني والسائرين في ركابه، أما الرابع فاتخذ منحى فلسفياً لفهم ما يحدث عبر الحفر عميقاً في دواخل النفس البشرية كرواية حسن صقر "شارع الخيزران"، والنوع الخامس هو الروايات التي عايشت الفقد والمعاناة وانتصرت لحقيقة ما يحدث كرواية "مفقود" لحيدر حيدر و"طابقان في عدرا العمالية" لصفوان إبراهيم.

وتساءلت الروائية إيمان شرباتي في مداخلتها عن مدى نضج التجربة الروائية في الوقت الذي لا يزال فيه الحدث طازجاً والحرب مستمرة، خاصة أن هناك روايات خالدة كـ"الحرب والسلم" لتولستوي والتي كتبت زمن شيوع السلم، وهو ما أتاح لها فرصة التأمل والابتعاد عن الطابع التقريري والجنوح إلى الخيال والإبداع والابتكار ما يمنحها صفة الديمومة.

أما عن روايتها "بنت العراب" التي كتبت سنة 2015 فأوضحت شرباتي أن هذه الرواية قصة حب كانت الحرب خلفية لأحداثها، وأفسحت المجال لتطور الشخصيات وتشابكها في ظل ما يحدث دون أن تتناول ضجيج المعركة، حيث سعت لتجنب الصيغة التقريرية التي سقطت فيها الكثير من الأعمال.

وبيّن الروائي محمد الحفري أن الرواية الوثائقية حاضرة في الأدب وهذا لا يضر بالفن بل يزيده تنوعاً وجمالاً، مشيراً إلى أن البعض من كتاب الجيل الجديد اشتغلوا على التقنية ونسوا الحكاية وهذا لا يجوز فالشرطان متلازمان، لكن الحكاية تتفوق قليلاً لأننا نحن أبناء هذا الوجع.

الحفري الذي أنجز روايتين عن الحرب هما "جنوب القلب" و"ذرعان" -إضافة إلى عدد من القصص كانت الحرب محورها- أشار إلى عدد من الروايات التي كان محورها تداعيات أحداث هذه السنوات العشر، منها "زناة" و"آثام" لسهيل ديب و"غزلان الندى" لعلي المزعل و"شمو" لمحمد الطاهر و"ألسنة اللهب" لمنال رشيد أبوحلفة و"تيا يا أنت" لآمال المانع، لافتاً إلى أن ما كتب على صعيد كل الأجناس الأدبية مازال قليلاً قياساً إلى حجم الحدث السوري والفاجعة المروعة، ورفض المقولة التي تقول إن الرواية لا تكتب أثناء الحرب.

أدارت الندوة فاتن دعبول التي لفتت إلى دور المرأة السورية في كتابة رواية الحرب، مشيرة إلى تباين هذه الرواية بين من وثق لها بمصداقية وبين من سيسها وجعلها ردود أفعال.

ومما نخلص إليه من آراء المتدخلين في الندوة أن الحرب تظل مُغرية للكتابة لا شك في ذلك، لكنها ليست ضامنة لنوعية السرد ولا لمعمارية الرواية؛ فضجيج المعارك بين الكلمات وانفجار الألغام بين الجُمَل أو سقوط قذائف الهاون على اللغة وتسلّل أصوات الصواريخ بين المقاطع وآلام البشر التي لا تحتمل ومظاهر الدمار والخراب، كلها رغم شدة تأثيرها النفسي ووجعها المتسع لا تكفل تعدد الأصوات في الرواية وليست دليلا على الجودة، مثلها مثل الوثائق والأخبار والحكايات المستقاة من أفواه أبطالها ورواتها، غير القادرة هي الأخرى على أن تكون بُرهانا قاطعا على حيوية السَّرد وجماليات حبكته وبنائه وسلاسة تحريك الشخصيات.

ورغم احتدام الجدل حول إشكالية الكتابة عن الأحداث بينما لم تنته ولا تزال في طور الاستمرارية والتبدلات اليومية إلا أن المُبدع السوري الذي جاءته الحرب لتزلزل أفكاره وتعصف بكيانه وتهدد حياته وحياة أسرته لم يجد بُدًا من التفاعل معها عبر الكتابة عنها، فجاءت بعض الأعمال على درجة من النضج فيما كانت أعمال أخرى أقرب إلى المباشرة والسطحية.

وتناول الحرب روائيا يختلف بين نص وآخر، لكن التعاطي مع النص الروائي على أنّه وثيقة يُحتّم علينا إشهارها في وجه التاريخ يبقى إحدى أكبر هنات الرواية السورية في الفترة الأخيرة.

آلام الحرب القاتمة قد لا تصلح للسرد (لوحة للفنان عمر إبراهيم)

الرواية العربية محتجزة في الطابع الانعكاسي

الكويتية سعاد العنزي: مواقع التواصل سيّجت الممالك الإبداعية للكتاب

لقد فرضت مواقع التواصل الاجتماعي سطوتها على عالم الأدب وخلقت نمطا آخر من "النقد" الموازي، الذي لا يتجاوز عتبة المجاملات الإلكترونية، وبينما رسّخت علاقة الكتاب بالقراء من جهة لكنها من جهة أخرى ضخمت غرور الكتاب ومنعتهم من الشك والتجدد. "العرب" كان لها هذا الحوار مع الناقدة الكويتية سعاد العنزي حول واقع النقد والرواية العربيين.

محمد الحمامصي
كاتب مصري

الأصوات الإبداعية كثيرة والنقاد نادرون

تحفل انشغالات الناقدة الكويتية سعاد العنزي، أستاذة النقد الأدبي الحديث في جامعة الكويت، باهتمام خاص بالرواية العربية، على الرغم من أن أطروحتيها للماجستير جاءت حول "النظرية النقدية والثقافية"، والدكتوراه حول "تشكيلات هوية ما بعد الاستعمار في أعمال إدوارد سعيد ومحمود درويش".

وركزت كتبها وبحوثها ودراساتها المنشورة على معالجة قضايا وإشكاليات الرواية، فتناول أول كتبها صور العنف السياسي في الرواية الجزائرية المعاصرة، وفي الثاني الهوية العربية بين التخييل والواقع، وخصت كتابها الثالث لرواية المرأة الكويتية في الألفية الثالثة، وربما كان هذا الكتاب وراء كتابها الأخير الذي عمقت فيه قراءاتها لكتابات المرأة العربية وذلك بدراسة مقارنة بين فرجينيا وولف ومي زيادة.

وإذا تتبعنا هذه الانشغالات في البحوث والدراسات فهي تمتد إلى تجليات الرواية العربية من الكويت إلى مختلف الدول العربية، هذا فضلا عن انشغالات أخرى ترتبط بمستقبل الأدب والإعلام الرقمي بين الدكتاتورية والديمقراطية، والتحليل النفسي بين فرويد ولاكان. وفي هذا الحوار نتعرف على رؤيتها وأفكارها.

انطلاقا من مشهد الرواية العربية الآن في عالمنا العربي عامة والرواية الكويتية خاصة، تقول العنزي "عند التطرق لهذا الموضوع الشائك، ينبغي علينا الفصل بين الروائيين المحترفين والروائيين الأقل احترافية، والذين لا يزالون في طور التجريب. وضمن الأدباء المحترفين أنفسهم نجد مستويات إبداع متفاوتة. ربما من الجيد القول إن مشهد الرواية خلال القرن الماضي شهد تنوعا كبيرا واتجاهات كثيرة، لكن من الصعب تقييم المشهد في العقد الماضي، لأنه من بين الأعمال المتواضعة نجد مجموعة من الأعمال المهمة واللافتة".

المرأة والسياسة والنقد

تقول العنزي "من المهم القول إننا نعيش في مرحلة من الأدائية في الرواية العربية، أن يقدم الكتاب روايات، ولكن من دون أي إبهار أو تجديد حقيقي. لدينا كتاب يلاحقون الموجات، ويحاولون ملء الفجوات، وهذا بعيد عن العملية الإبداعية. أما في ما يخص الرواية الكويتية فيؤسفني القول إنها تعاني من عدة أمور، أهمها قلة الأصوات الروائية، التي تحترف كتابة الرواية بعد الراحل إسماعيل فهد إسماعيل. لقد ترك رحيله صراحة فجوة في الرواية الكويتية. الأمر الآخر، إن هناك كتابا دخلوا إلى الرواية من بعد ممارسة أنواع كتابية أخرى وأنجزوا رواية أو روايتين مثل سليمان الشطي ونجمة إدريس، وثريا البقصمي وعالية شعيب. أما بقية الكتاب فهم يخوضون في مراحل تجريب دائمة يصيبون في بعض من الإصدارات ويخفقون في بعضها الآخر".

وفي ما يتعلق برواية المرأة في المشهد الروائي الكويتي وأبرز الملامح التي تتميز بها عن رواية الرجل، ترى العنزي أنه باستثناء ليلى العثمان، لن نجد رواية نسوية في الكويت، ما تبقى من إصدارات هي إصدارات لكاتبات لا يعبأن بقضية المرأة ولا فكرة اختلاف الصوت النسائي واختلاف قضايا المرأة عن الرجل أو حتى تبني قضايا النساء باختلاف الطبقات والأوضاع الاجتماعية.

وتقر بأنها لا تعلم إن كانت الكاتبات الكويتيات لا يكتبن في موضوع المرأة من منطلق قناعة أن المرأة نالت حقوقها أو من رغبة في الانشغال بالقضايا الخاصة واهتمامات جمالية خاصة بهن، أو ربما بسبب خوف من الرقابة الاجتماعية وهيمنة السلطة الذكورية على النشر، وتستشهد بفرجينيا وولف في قولها "إخفاء هوياتهن يجري بدمائهن".

وتؤكد العنزي أن رواية المرأة استطاعت في الكويت خاصة والخليج عامة تجاوز تابوهات العادات والتقاليد والأعراف، وترى أن قسما من الكاتبات كتبن في تابوهات العادات والتقاليد بطريقة تقليدية ولم يتجاوزن هذه الحدود، وكان هذا النوع من الكتابات رديئا من الناحية الفنية، ودائما يسقط الجانب الجمالي فيها على حساب الرؤية الخطابية الأيديولوجية. أما القسم الآخر فهو الذي ينجح فنيا مع التخلي عن التطرق لموضوعات المرأة، ومعالجتها ضمن إطار اجتماعي عام. بينما هناك نوع آخر يحاول الموازنة بين الأمرين.

وتوضح الناقدة أن رواية المرأة في الكويت تحظى بمتابعة نقدية، حيث يتم التعامل مع منجزها محليا وعربيا بشكل جيد وبحسب التفات النقاد واهتمامهم. لكنها تشدد على أن القراءات الصحفية الأولى مجرد تغطيات لمجلات وصحف، ولكن الدراسات النقدية قليلة لأن الساحة النقدية في الخليج تعاني من قلة النقاد المتفرغين لمتابعة الأصوات الإبداعية وهذا ما يحتاجه الإبداع في الخليج العربي. يحتاج إلى دراسات نقدية تملأ الفراغ النقدي في المكتبة الخليجية.

وحول العلاقة بين الرواية والسياسة في ظل التوترات التي شهدتها وتشهدها المجتمعات العربية، تلفت العنزي إلى أن "الأحداث السياسية في العقد الماضي قامت بتشكيل الرواية العربية، بسبب أحداث الربيع العربي وسلسلة الشتات الكبيرة التي أصبحت معها البلدان العربية شواطئ لهجرات غير رسمية ومطارات توزع العرب إلى كافة الاتجاهات، بعد أن أصبح الإنسان العربي مجرد أرقام في قائمة المهاجرين المنفيين الذين يعيشون على التخوم، على هوامش المدن".

وتضيف "تابعت الرواية العربية هذا التشظي في داخل الأوطان وخارجها، كما رصدت العنف الواقع على العربي وتراوحت هذه الأعمال بين الأعمال الإبداعية اللافتة وبين الأعمال التي اكتفت بالرصد والتسجيل. بشكل عام، لقد لعبت الأحداث السياسية دورا كبيرا في تراجع الخطاب الروائي العربي".

وتؤكد أن "الرواية هي تلك النافذة البديلة التي تصوّر لنا حالة مجتمعاتنا في بقعة جغرافية متسارعة الأحداث تعيش صراعات محتدمة، وهنا يمكن القول إنه يحسب للرواية تجاوبها السريع مع الأحداث ومواكبتها لها. وقد تركت أعمالا لافتة في هذا المجال على قلتها. ولكن دعني أقول إنها نافذة من النوافذ البديلة، فالدراما العربية أيضا تأتي في الدرجة الثانية بعد فن الرواية في نقل الأحداث".

الرواية الانعكاسية

بعد مرور قرن أو ما يقرب من ربع قرن على انطلاق الرواية العربية هل غيّرت الرواية العربية المجتمعات العربية وطريقة تفكيرها؟ سؤال يبدو للعنزي أنه قد ينطبق على المجتمع الغربي، تقول "لست متأكدة من أن العلاقة بين الرواية وتشكيل هوية المجتمعات العربية هي الإجابة الدقيقة. في الغرب، لعبت الرواية دورا مهما في تشكيل الهوية الفردية والاجتماعية، مثلا هناك دراسات عن تأثير روايات ديستوفسكي في تشكيل الهوية الاجتماعية الروسية، وطرحت إمكانية خلق شخصيات إنسانية جديدة طرحتها فرجينيا وولف في أعمالها".

وتتابع "لأن القراءة جزء أصيل في الثقافة الغربية نجد هذا النوع من التفاعل مع الروائع الأدبية. بينما في المجتمعات العربية نجد إمكانية التغيير محدودة الأثر فقط تحدث عند قراء الرواية الحقيقية، لأن القراءة ليست سلوكا ثقافيا للأغلبية بل هي ممارسة نخبوية فقط. الأمر الثاني هو أن الرواية العربية تأخذ الطابع الانعكاسي، هي انعكاس لتفكير طبقات المجتمع، تعكس وتحلل وتفسر، وقلما تخلق نموذجا وتقترح صورا جديدة. باختصار، نحن نتعامل مع الثقافة كمسألة من الدرجة الثانية، بينما في الغرب هي حاجة أساسية في حياتهم".

ما يهدد الرواية العربية اليوم ويجعلها في خطر، في رأي الناقدة الكويتية، ليس فقط انحسار المؤسسة النقدية أو طغيان الكم المنشور أو ظهور رواية البيست سلر، ولكن كما توضح العنزي أن كل هذه العوامل تعود إلى تراجع الثقافة في الوطن العربي بشكل عام، وتقول "أنا لا أعني هنا المشتغلين بالثقافة فهذا أمر آخر، بل أقصد قراء الأدب والنقد الذين تقلص عددهم بسبب حالة الإحباط العامة وعدم الإحساس بجدوى الفعل الثقافي، مع تزايد الدور التتفيهي الذي تلعبه وسائل التواصل الاجتماعي اليوم. وهذه الحالة من التراجع الثقافي جعلت المؤلفين يطمئنون ولا يعملون على تطوير خطابهم الروائي ويظنون أن أي شيء يقدمونه سيرضي ذائقة الجمهور. بعد هذا كله، فإن الرواية هي الفن الأكثر قابلية للنمو والازدهار في هذه الحقبة والفترة القادمة".

وتشير العنزي إلى أن وسائل التواصل الاجتماعي لها أثر كبير في نشر الأعمال الأدبية، ولاسيما الروايات المرتبطة بمواسم الجوائز الأدبية التي تخلق حركة من النقاشات الثرية، أوصلت لنا أسماء ومناقشات عقلانية لنجاح وسقوط بعض الأعمال. وأوصلت وسائل التواصل أصواتا كثيرة جعلتها تظهر إلى النور من دون سطوة الإعلام الرسمي شديد الهيمنة في السابق.

> الرواية العربية انعكاس لتفكير طبقات المجتمع، تعكس وتحلل وتفسر، وقلما تخلق نموذجا مختلفا وتقترح صورا جديدة

في المقابل، تقر بأن وسائل التواصل خلقت جسورا قوية بين الكتاب وقرائهم وعادت صورة الكاتب الإله تعلن عن نفسها من جديد. وألهت الجماهير الروائيين، وجعلت من الصعب الاقتراب من سياج ممالكهم الإبداعية، مما أحدث انفصالا بين المؤلف والمؤسسة النقدية مكتفيا بسلطة حضوره الطاغية عند جمهوره، ومنغلقا على ذاته أكثر، من دون أدنى تفكير في عملية التطوير الذاتي.

وترى العنزي أن لدينا أزمة متعلقة بكثرة الأصوات الإبداعية مع ندرة في الأصوات النقدية التي تضع متابعة الإنتاج الأدبي في خططها وبرامجها الثقافية، إذ ليس كل النقاد في الوطن العربي منشغلين بمتابعة المشهد الثقافي لما لديهم من انشغالات معرفية خاصة. أما النقاد المنشغلون بالمشهد الإبداعي، فلديهم إشكالية في نوعية القراءات ومدى عمقها واختلافها.

وتضيف "نحن لسنا بحاجة إلى البحث عن وجود قراءات ولكن البحث عن وجود اختلاف في القراءات. ما يحدث عندنا هو تناغم كبير بين الأصوات النقدية وتمركز حول بئر نقدية واحدة، وما أقصده هو الدراسات البنيوية والسيميائية. النقد الأدبي والثقافي في الوطن العربي يحتاج إلى جرأة في مقاربة النصوص من دون تخوف من أي مراقبة اجتماعية وثقافية وسياسية، والجرأة على تقديم فكر الاختلاف، والنهل من الينابيع المعرفية المتنوعة".